استدعاء الشخصيات التاريخية
(نونية يوسف القرضاوي أنموذجا)

ناصري علاوة
جامعة تبسة

ملخص

يهدف هذا المقال إلى تسليط الضوء على بعض جوانب الشعر عند يوسف القرضاوي، ومن أهمها استدعاء أسماء الشخصيات، الأماكن والوقائع التاريخية، بهدف الوقوف على حقيقة نظام الدكتاتور جمال عبد الناصر، بحسب الشاعر.

Résumé

Cet article tente de mettre en exergue certains aspects de la poésie chez Yusuf al-Qaradawi, dont le plus important est le recours à l'utilisation des noms de personnes, sites et événements historiques afin de dévoiler le régime du diktat Gamal Abdel Nasser, selon le poète.

مقدمة

يتفق قراء (الأعمال الشعرية الكاملة ليوسف القرضاوي) على أن المحرك الأول، والدافع الأساسي لعالمه الشعري هو محرك ديني سياسي وحضاري، مرتبط بعصر اشتد فيه الصراع بين الدين والعلمانية. لقد سلك أطراف هذا الصراع سبلا شتى لإفناء الطرف الآخر، وشرّعوا من القوانين ما يحمي ظهورهم من كل ضربة قاسية.

كان الأدب عموما والشعر خصوصا احد الأسلحة عند القرضاوي الذي عرفه الناس إماما يخطب في الناس، ويدعوهم إلى سبل الرشاد. وقد وجد في التفاف الناس حول جماعة الإخوان المسلمين أهم سند ليدخل في معارك حامية الوطيس ضد نظام جمال عبد الناصر.

كان الشعر بعض اهتماماته قياسا بنشاطه الدعوي في كل بلد إسلامي نزل به كالجزائر وقطر. يقول في قصيدة عنوانها "أنا والشعر" عام 1950.(من الطويل):

أريد له هجراً فيغلبنـي حُبِّي وأنـوي ولكن لا يطاوعني قلبي
وكيف أطيق الصَّبر عنـه وإنَّما أرى الشِّعر للوجدان كالماء للعشب
فكم شدَّ من عزمٍ وبصَّر من عميً وأيقَظَ من نومٍ, وذلَّل من صعب (1)

أسباب استدعاء الشخصيات وتجلياتها في النونية:

وظف يوسف القرضاوي شعره في أحد الأمرين:

- وصف حال المسلمين وقد نال منهم الضعف النفسي.
- وصف حاله وقد نال منها المرض والسجن.

اتصل يوسف القرضاوي بحركة الإخوان المسلمين في سن مبكرة، وانتقل جراءها من جو الشعر والأدب إلى جو الدعوة العامة للإسلام، ومن طريق الوعظ العام والتدين الفردي إلى أفق الحركة الإيجابية التي تعمل على خلق تيار إسلامي عام وتكوين جيل يفهم الإسلام[2].

كانت إحدى النتائج الحتمية لهذا الصراع اعتقال يوسف القرضاوي للمرة الثالثة في نوفمبر 1954 وبقي في السجن عشرين شهرا.

وفي السجن الحربي بالقاهرة قال قصيدته النونية، وهي 314 بيتا، وسماها الأديب حسن جرار ملحمة الإبتلاء، وفيها وصف لما جرى داخل السجن وخارجه.

وتنفرد هذه القصيدة على خارطة الشعر الإسلامي المعاصر، ليس بطولها فحسب، وإنما بقدراتها التسجيلية الفائقة على متابعة الدقائق والتفاصيل، وتوثيق حشود الوقائع والأعلام والمفردات التي تشكلت داخل السجون المصرية في الخمسينيات[3].

استدعاء الشخصيات التاريخية بين القديم والحديث:

هل كان يوسف القرضاوي سباقا إلى حشد الوقائع والأعلام؟ أم أن غيره قديما وحديثا لجأ إلى مثل هذا التوظيف لأسباب؟

كان في شعر الفرزدق أحد شعراء العصر الأموي كثير من الحوادث والقصص والأخبار المحلية وأسماء الأشخاص حاول أن ينحت منها شعرا.

دعمن بحاجب وابن عقال وبالقعقاع تيار الفرات
وصعصعة المجير على المنايا بذمته وفكاك العناة
وصاحب سوأر وأبي شريح وسلمى من دعائم ثابتات
بناها الأقرع الباني المعالي وهودة في شوامخ باذخات
لقيط من دعائمها ومنهم زرارة والندى والمكرمات [4]

وقال المتنبي:

أنا في أمة – تداركها الله– غريب كصالح في ثمود

وقال:

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه لما أتى الظلمات صرن شموسا
أو كان صادف رأس عازر سيفه في يوم معركة لأعيا عيسى
أو كان لج البحر مثل يمينه ما انشق حتى حاز فيه موسى [5]

وفي الشعر العربي الحديث والمعاصر، استدعاء للشخصيات التراثية حسب الحاجة، إذ يعتقد كثير من الشعراء أن ذلك يخدم أهدافا معينة في قصائده يجعلها منسجمة مع القصد الذي أراده هؤلاء الشعراء حين عبروا عن رؤاهم، فأفاضوا من حيث أفاض الناس للوصول إلى قلوب الناس، فكان لهم ما أرادوا.

إن قراءة التاريخ والاستفادة منه بتقديمه للآخرين في صور شعرية أوجب واجبات الشعراء، به يستمتعون ويمتعون، مادام الشعر قديما وحديثا ديوان العرب.

إن أي استدعاء للتراث في الشعر الحديث والمعاصر، إنما هو تعبير عن فكرة اقتنع بها الشاعر ومن دواعي هذا الاستدعاء:

- عوامل فنية.
- عوامل ثقافية.
- عوامل سياسية واجتماعية.
- عوامل قومية.
- عوامل نفسية[6].

ويعد يوسف القرضاوي أحد هؤلاء الشعراء الذين وظفوا التراث في قصائدهم، وهو الذي صدر في نونيته عن قضية مصيرية تتعلق بالحياة والسعادة والكرامة الإنسانية التي لا يجد لها أثرا في السجن الحربي بالقاهرة مدة سجنه.

لقد أيقن الشاعر أن لا عزة لإنسان في سجون مصر ولو كان في مقام الصالحين، لأن النظام لا يقبل أبدا بوجود أشخاص منضوين تحت لواء جماعة الإخوان المسلمين فيكيد لهم كيدا... وكان العنف يقارع العنف.

لقد كان الشعر منذ البدء شعر قضية، إذ أنه يصدر عن المعاناة والمنازعة والرفض والثورة[7] .

تكشف النونية منذ بدايتها عن ثقافة وسعة للشاعر، وهو الذي كان يحوز المراتب الأولى في المدرسة والمعهد... وكان في جملة من استدعى الأنبياء والفلاسفة والخلفاء ورجال الحرب والسياسيين... وقد علم ما هم في أممهم.

كانت تلك الشخصيات التاريخية شرقية وغربية، قديمة ومعاصرة، متدينة وغير متدينة، أحد وجوه المعجم الشعري في النونية، وكانت تلك الأسماء كافية لإدانة نظام جمال عبد الناصر، وقد قرنه بشخصيات صنعت التاريخ، لكن بكيفيات مخالفة لمنهج وأهداف القرضاوي وجماعته، وهنا بعض مكمن جماليات التوظيف.

كان لتلك الشخصيات المستدعاة حضور تاريخي متميز إذ استطاعت أن تغير كثيرا من معالم التاريخ والجغرافيا بما أوتيت من حكمة ربانية وعلم ومعرفة ومال، وهي كلها نعم تستحق شكر الله.

ويكفي استدعاء هذا العلم أو ذاك لاستثارة النفوس وتحويلها من الهدوء إلى الثورة، والثورة مطلب جماعة الإخوان في مصر التي تحولت إلى جمهورية، وقد كانت من قبل مملكة تداول فيها السلطة الملك فؤاد وولده فاروق.

لا شك أن عملية الاستدعاء انتقائية إذ يختار الشاعر ما يوافق فكره ضمن الجماعة، وكان يونس عليه السلام أول المدعوين. يقول: **نونية، والنون تحلو في فمي أبدا، فكدت يقال لي: ذو النون**[8]

وقد سماه القرآن الكريم صاحب الحوت[9]، ليكون ملخصا لموضوعه، واشيا بأسراره التي تحيلنا على قراءة الشاعر لهذا الموضوع من القرآن الكريم[10] وقد وجد فيه معادلا موضوعيا يليق بوضعه في السجن الحربي بين الأرق واللذة، والتعب والراحة، وبين الرجاء والخيبة...تلك محن قديمة عاشها يونس عليه السلام، وهاهي المحن تتجدد في ذي النون المصري الجديد بطرق أخرى، وأساليب مخالفة وأهداف متباينة.

إنه استدعاء موفق ما دامت سيرة ذي النون النبي المرسل تلقى صداها عند المسلمين الذين فتنوا – أو لم يفتنوا– بالسجن أو غيره. أما يونس عليه السلام فقد التقمه الحوت وهو مليم، لأنه لم يصبر على قومه وقد خرج مغاضبا لهم، بغير إذن من ربه، فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون.

وللشاعر قصته مع زنازين السجن الحربي في القاهرة:

يا سائلي عن قصتي، اسمع إنها قصص من الأهوال ذات شجون
فـي ليلـة ليـلاء مـن نوفمـبر فزعت من نومي لصوت رنين
فإذا (كلاب الصيد) تهجم بغتة وتحوطني عن يسرة ويمين
وعزلت عن بصر الحياة وسمعها وقذفت في قفص العذاب الهون[11]

هكذا امتحن الأنبياء قديما، وهكذا يمتحن المصلحون حديثا، وبين ذاك وهذا تقارب وتباعد، والشاعر على وعي بذلك. يقول: وكدت يقال لي: ذو النون. إنهما درسان بليغان لكل الدعاة والمرشدين والقادة والمصلحين.

لقد أيقن يوسف القرضاوي أن الصبر مفتاح الفرج وأن مهادنة السلطة أمر لا يقبل إذا كان الطرف الآخر على صواب، وأن المؤمنين أصبر الناس على البلاء وأثبتهم في الشدائد وأرضاهم نفسا، وعرفوا أن ما ينزل بهم من مصائب ليست ضربات عجماء، ولا خبط عشواء، ولكن وفق قدر معلوم، وقضاء مرسوم، وحكمة أزلية، وكتابة الاهية، فآمنوا بأن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم، وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم. (12)

وتتابع الاستدعاءات وتتنوع تنوعا يثير دهشة القارئ لأن الأمر مخالف تماما لكل ما ينتظره من شاعر يستدعي القتلة والسفاحين ويترحم عليهم... ويتفاجأ المتلقي حين استعمل الشاعر (حتى ترحمنا على نيرون) لكن مبررات الاستعمال مقبولة، ولأن القرضاوي كان شاهدا على ممارسات التعذيب التي كانت أجساد الإخوة مسرحا لها.

إستدعاءات ساخرة:

كان عصر نيرون (37م–68 م) مليئا بالفتن والمؤامرات والاغتيالات، وكانت أمه أولى ضحايا حكمه، وقد ماتت وهي تلعنه، وقتل زوجته الأولى أوكتافيا، وقتل معلمه سينيكيا والرسولين بولس وبطرس. أما أشهر جرائمه فحرق روما عام 64م حيث راوده خياله بإعادة بنائها، وبينما كانت النيران تلتهم المدينة، كان نيرون جالسا في برج مرتفع يتسلى بمنظر الحريق، وبيده آلة الطرب يغني أشعار هوميروس. واتهم مسيحيي روما بارتكاب الجريمة، وقتل منهم الكثير ومات منتحرا.

إن مثل هذه المقاربات غريبة عجيبة، فنيرون سادي، سفاح، لا يستحق أبدا الرحمة التي تعددت معانيها ودلالتها بين (الإسلام، الجنة، المطر، النبوة، النعمة، القرآن، الرزق، النصر والفتح، الصافية، المودة، الإيمان، التوفيق...)(13) وأي حظ لنيرون من هذه الرحمات؟!

يتراجع القارئ قليلا حين يستيقن من وضع مصر جمال عبد الناصر:

قل للذي جعل الكنانة كلها — سجنا، وبات الشعب شر سجين
يا ذئب غدر نصبوه راعيا — والذئب لم يكن ساعة بأمين(14)

سلطة الشخصيات الدينية في النونية:

ولما كانت الشخصيات الدينية –مع تفاوت في تأثيرها– محل اهتمام كثير من الشعراء في العصر الحديث، فإن يوسف القرضاوي، وتبعا لظروف مصر، وقد أحاط بها العدو الإسرائيلي، راح يبحث في تاريخ المسلمين فاستدعى الخليفة هارون الرشيد وصلاح الدين الأيوبي لما لهما من إنجازات في المجال الحربي على الخصوص. يقول:

لا يعبأون بصالح ولو أنه — في زهد عيسى أو تقى هارون
اذهب لغزة يا همام وأنسنا — بجهادك الدامي صلاح الدين!!
إذ قال حمزة – وهو منتفخ – فلم — يترك لفرعون ولا قارون:
إني هنا القانون, أعلى سلطة — من ذا يحاسب سلطة القانون؟!!
فإذا أردت وهبتكم حرية — أو شئت ذقتم من عذابي الهون(15)

تعد تلك الأسماء المستدعاة مصدرا هاما من مصادر المقاربة بين ماض كان الخليفة قوة للدين ودعما له، وبين حاضر لا كرامة فيها لأي كان ما دامت الدنيا هي مبلغ هذا وذاك.

يعد عيسى عليه السلام من أكثر الأنبياء طلبا في الشعر الحديث والمعاصر، وكان التناول مختلفا من شاعر لآخر، وإزاءه أحس الشعراء أنهم أكثر حرية، ومن ثم أطلقوا لأنفسهم العنان في تأويل ملامحها وانتحالها لأنفسهم. ومعظم ملامح المسيح مستمدة من الموروث المسيحي، وخصوصا الصلب، والفداء، والحياة من خلال الموت...[16]

ولقد اقترن إسمه في البيت بصفتين جليلتين هما الإصلاح والزهد. إنها صفات لا تلقى الاستحسان في سجن قائده حمزة البسيوني الذي قال فيه الشاعر:

لا تحسبوهم مسلمين من اسمهم لا دين فيهم غير سب الدين!

والحديث عن عيسى عليه السلام إشارة واضحة من السياق أن القائمين على إدارة السجون في مصر لا تحترم جماعة المسلمين ومنهم العلماء.

أما هارون الرشيد (170هـ–193هـ/786م–809م) فقد كان واسطة عقد الدولة العباسية بلغت فيه ذروة السلطان والحياة، وكانت بغداد تعج بالعلماء والأدباء والشعراء[17].

وكان يتصدق كل يوم من صلب ماله بألف درهم...، وأما حجه فإنه لا يتخلف عنه إلا إذا كان مشغولا بالغزو، فهو في عام بين غاز وحاج، وكان إذا حج، حج معه من الفقهاء وأبنائهم، وإذا لم يحج، يحج عنه ثلاثمائة رجل بالنفقة السابقة والكسوة الباهرة[18].

أما صلاح الدين الأيوبي (532هـ–589هـ/1137م–1193م) فقد اقترن اسمه في الشعر العربي الحديث والمعاصر بأعظم الإنجازات ذات العلاقة بالحروب الصليبية على المشرق العربي وخاصة فلسطين... فهو مفخرة العرب والمسلمين إذ استطاع أن يبسط يده على الرملة وبيت لحم والخليل وعسقلان وغزة، ويحرر القدس من أيدي الصليبيين الحاقدين. كان من أعماله الجليلة أن أنزل من على قبة الصخرة الصليب الذهبي وناقوس النصارى وأحل محله الآذان[19].

لقد استطاع صلاح الدين بأخلاقه أن ينال إعجاب تشرشل الذي قال عنه: «**إنه أعظم ملوك الدنيا**» وقال عنه الكاتب الإنجليزي ريد هيجارد أنه أعظم رجل على وجه الأرض[20].

ذاك موقف الإنجليز مساعدي اليهود على تأسيس دولتهم من صلاح الدين الذي حارب الصليبيين. وهذا موقف صاحب السجن من أمثال صلاح الدين.

وبطريقة ضمنية، فالقرضاوي حين وظف التراث الديني أراد أن يربط بين الماضي بكل عظمته التي صنعها رجال كان الدين الإسلامي منارة يهتدون بها، وبين حاضر هش متضع وواهن صنعه رجال أرادوا أن يطفئوا نور الله...كان يونس وعيسى عليهما السلام وهارون الرشيد وصلاح الدين الأيوبي مدارس للتربية الصالحة، وكان استحضارهم تذكيرا للغافل ومعونة للعاقل، لكن القوم صم بكم عمي فهم لا يعقلون.

ثم يأتي الشاعر على ذكر سقراط وتلميذه أفلاطون، ولم تكن حياة الأول ونشاطه السياسي مع الشباب ليروق حكومة أثينا التي اتهمته بإفساد هذه الفئة من المجتمع، والإساءة إلى تقاليد الحكم، وهو ما عجل بإعدامه.

ويعد بذلك أول الأسماء المضطهدة في عالم حرية الفكر التي تعد جريمة تعاقب عليها الحكومات المستبدة التي يخيفها نور العلم.

إن إعدام سقراط رسالة واضحة من الأنظمة القمعية إلى كل المفكرين والمثقفين الذين يرغبون في ممارسة السياسة على حساب النظام القائم. وكما لم تكن لسقراط منزلة ... فكذا القرضاوي في زمن كان جمال عبد الناصر قد نال من كثير من المثقفين ورجال الدين الذين أعلنوا انتماءهم إلى الإسلام دين الله الخالد، لا إلى سلطة زائلة.

كان سقراط مدرسة للصبر والتحدي، فقد رفض فكرة الهروب من السجن وفضل تجرع السم والموت. وقال لأصحابه: «أرشدوني إلى مكان لا موت فيه فأفر إليه»[21].

ويلتفت الشاعر إلى فرنسا، ويجد ضالته في أكثر قادتها الإمبراطور نابليون بونابرت (1769–1821) وذكره مرتين في موقفين مختلفين. قال مخاطبا حمزة البسيوني المشرف الأول على التعذيب:

هـلا ذهبت إلـى الحدود حميتها وأريتنـا أفكـار نابليـون؟!

وفي مكان آخر بقول:

أو ليس شرع الله ، شرع محمد أولى بنا من شرع نابليون ؟!

سلطة نابليون على يوسف القرضاوي:

ويعد نابليون كذلك من أكثر الشخصيات السياسية والحربية حضورا في الشعر العربي الحديث والمعاصر بحكم علاقته بمصر والمنطقة عموما. فقد جاءها في زهو المهدي المنتظر، أو نبي الإنسانية يكرز في البرية أو هكذا زعم لنفسه أو زعمه عامة الأوروبيين من عشاق الثورة وطلاب الحرية والخلاص[22].

هل يستطيع هؤلاء السجانون أن يرفعوا أيديهم عن الشاعر وجماعته؟ كلا. إنهم عباد قاسية قلوبهم، يفعلون ما يؤمرون ترضية لسيد الكنانة التي تحولت إلى سجن كبير في عهده.

ففي فلسفة الحكم، قضى بذلك الفكر السياسي في أوروبا، وقامت الثورة الفرنسية ترد إلى الشعب حقه في الحكم. وجاء نابليون يطبق ذلك في مصر بلا ثورة ولا دماء، فكتب في منشوره ليقول: «من الآن فصاعدا، فالعلماء والفضلاء سيسيرون الأمور، وبذلك يصلح حال الأمة»[23].

صحيح، لقد ارتبط نابليون بالثورة الفرنسية بما دعت إليه من حرية ومساواة وأخوة، وهي أفكار صفق لها الكثير في الشرق، ونسوا سبق الإسلام في ممارسة هذه الحقوق، ولم يكن عمر بن الخطاب (ض) بعيدا عن الأذهان وهو القائل: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا».

كان من تجليات الثورة الفرنسية الهجوم على سجن (الباستيل la bastille) يوم 14 جويلية 1789 وهو سجن الدولة الذي يمثل رمز السلطة وكان يوما لسقوط الطغيان. وأصبح هذا اليوم عيدا وطنيا لفرنسا.

ومن نتائجها على المستوى العربي أن غزا نابليون مصر (1798–1801) وادخل الأساليب والأفكار والطرائق الغربية التي أدرك قيمتها جندي محلي وقادر وطموح هو محمد علي. ولا يتردد بعض المؤرخين في جعل هذه الغزوة بداية النهضة العربية[24].

وكان الفرنسيون لما حلوا بالإسكندرية، كتبوا مرسوما وطبعوه –حسب الجبرتي– وأرسلوا منه نسخا إلى البلاد التي يقومون عليها تطمينا لهم، وصورة ذلك المكتوب: « بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله، لا ولد ولا شريك له في الملك» من طرف الفرنساوي المسمى أساس الحرية والتسوية[25].

وبذلك تعتبر الثورة الفرنسية حدا فاصلا بين العصر الملكي وعصر الديمقراطية والتنوير الذي تجسد في إرساء الوحدة الوطنية، كما تم توحيد الجيش وفرض التجنيد الإجباري من خلال شعار كل فرنسي جندي ، وكان من أهم نتائجها كذلك هو وثيقة حقوق الإنسان والمواطن في 26 أوت 1798 ومنها الحرية، الملكية، والسلامة ومقاومة الإستبداد[26].

أما الوجه الآخر لنابليون بونابرت، فهو دخوله الأزهر، ودوس سنابك خيله أرضه الطاهرة، وكان يقول : ها قد عدنا يا صلاح الدين.

لا شك أن القرضاوي قد أدرك أهمية نابليون مرتين، فهو خادم فرنسا والغرب حين غزا بلدهم، مهينا الدين الإسلامي من خلال الأزهر، ومرة حين صادر أفكار الديمقراطية والحرية خارج فرنسا.

وبذلك فقد آمن ببعض نابليون وكفر ببعضه الآخر... آمن به محبا لوطنه خادما لشعبه.... وكفر حين انتهك حرمات الأزهر...ويلتفت إلى طغاة مصر قديما فلا يجد إلا فرعون مقرونا بقارون.

إذ قال حمزة – وهو منتفخ – فلم يترك لفرعـون ولا قارون

أما فرعون فقد طغى في الأرض واستعبد أهلها واستحيى نساءها بدليل القرآن:

« **قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ** » [27] **ولتكون نهايته: « فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً** » كانت نهايته في البحر، ولم تبتلعه الحيتان لتراه الناس كما سيرى الناس حمزة البسيوني وقد قتل على قارعة الطريق.

وأما قارون الذي توسل بالمال والجاه للبغي والسطو وإشقاء العباد وإشاعة الفساد كانت نهايته: « **وخسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ**»[28]. وهكذا تكون نهاية الطغاة، وللقوم أن يعتبروا. قال لقيط بن يعمر: (البسيط)

هـذا كتابي إليكم والنذيـر لكم لمـن رأى ذا رأيـا ومن سمعا [29]

ومن الشخصيات التاريخية التي عاصرها يوسف القرضاوي كمال أتاتورك (مارس 1881–نوفمبر 1938) وجمال عبد الناصر (جانفي 1918–1971)، وقد ورد ذكرهما في النونية.

وكذاك قام « كما لهم » في تركيا ليـطارد الإسلام كالمجنـون

واليوم سار « جمالهم » في خطه بتــدرج وتخابـث ملعون

أما الأول، فحارب الإسلام حين جعل تركيا دولة علمانية، واسقط الخلافة الإسلامية في3 مارس 1924، وشن حملة تصفية بعد تعرضه لمحاولة اغتيال ضد الكثير من رموز الدين والمحافظين الذين شاركوا في تلك العملية. كما حارب في عهده اللغة العربية وأصبحت تكتب بالحروف اللاتينية...وأعطى حقوقا للمرأة، وأعطاه البرلمان التركي اسم أتاتورك(أبو الأتراك).

ولجمال مصر إنجازات يذكرها التاريخ، لكن للشاعر –وقد نال المر منه– وجماعته موقف مخالف لما يزعمه محبو الرئيس... وتشهد النونية على فظاظة الحكم وغلظته إذا ما تعلق الأمر بالعصاة والمتمردين والمنشقين...تلك شخصيات غائبة وأخرى حاضرة، بعضها يلقى هوى في فؤاد الشاعر –ولو كان نيرون– كالأنبياء المرسلين. وبعضهم ممقوت، منبوذ عند الجميع كفرعون وقارون.

والتفت الشاعر –فيمن التفت إليهم–، إلى كبار الصحابة والفاتحين:

يخشون « يعرب » أن تجود بخالد وبكـل « سعد » فاتـح ميمون

يخشون « أفريقيا » تجود بطارق يخشون تركيا كنـور الديـن[30]

إن استدعاء أسماء الفاتحين الكبار يرمي جمال عبد الناصر وجماعته بالشرر، أين هو من هؤلاء وقد كانوا ممن فتحوا الأمصار، كما فعل طارق في الأندلس. لقد كانت تضحيات الفاتحين في سبيل الله... وضيع غيرهم من صالح الأعمال الكثير... إنه الإحساس الجميل لمواقف الرجال وازدراء فضيع بمن كذب وتولى. وسيشهد التاريخ صدق هؤلاء وكذب هؤلاء.

خاتمة:

وظّف الشاعر في النونية أكثر من ثلاثين علما موزعين على أسماء الأشخاص والأماكن والمعارك. وهي كلها تدين سياسة جمال عبد الناصر وتفضحه، وكأن القصيدة وثيقة للمحاكمة والمرافعة عن طريق تحقيق المفارقة بالمقابلة بين طرفين مع الاحتفاظ لكل منهما باستقلاله عن الآخر[31].فالمواقف البطولية للمفكرين والفاتحين والسياسيين تولّد الإحساس بهذه المفارقات.

الهوامش والإحالات:

1 – الأعمال الشعرية الكاملة: يوسف القرضاوي، دار اليمن للنشر والتوزيع والإعلام، الخروب– قسنطينة، ص47.

2 – المرجع السابق: ص17.

3 – يوسف القرضاوي ،كلمات في تكريمه وبحوث في فكره وفقهه مهداة إليه بمناسبة بلوغه السبعين: مج2، مجموعة مداخلات لأساتذة عرفوه، ط1 ، دار السلام، القاهرة،1424هـ– 2004، ص621.

4 – الفرزدق: (سلسلة نوابغ الفكر العربي)، د.ممدوح حقي، دار المعارف، ط5، ص49.

5 –شرح ديوان المتنبي(سلسلة شعراؤنا): وضعه عبد الرحمن البرقوقي، راجعه وفهرسه د. يوسف الشيخ محمد البقاعي، ج1، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1424هـ–2004م، ص279، 437.

6 – استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر: زايد على عشري، (د ط)، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997، ص15.

7 – نزار قباني: شاعر قضية الالتزام، ج2: إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ص6.

8 – انظر الآية: « وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا، فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ، فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ، سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ.» الأنبياء 87.

9 – انظر الآية: « فاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ. لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاء وَهُوَ مَذْمُومٌ » القلم 48– 49.

10– قبس من نور القرآن الكريم: (دراسات قرآنية)، ج4، محمد علي الصابوني، مكتبة رحاب، الجزائر، 1989، ص 184–185.

11– الأعمال الشعرية الكاملة: ص50.

12– يوسف القرضاوي، كلمات في تكريمه (مرجع سابق)، ص797.

13– قاموس القرآن الكريم أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن: الفقيه المفسر الجامع الحسين بن أحمد الدامغاني، دار العلم للملايين، ط3، ماي 1980، ص62.

14– الأعمال الشعرية الكاملة: ص62.

15– حمزة البسيوني ضابط كان برتبة مقدم عام 1954، وهو قائد السجون الحربية آنذاك، وبقي قائدا لها في هذه المحنة (1965)، ويحمل في صدره قلب وحش، وفي يده كرباج (سوط من أسلاك كهربائية مغطاة بجلد) لا دين له، استعمله جمال عبد الناصر في ضرب الإخوان. كانت وفاته باصطدام سيارته بخلف شاحنة تحمل قضبان حديد فمزقت جسده.

16– استدعاء الشخصيات: ص82.

17– الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي: محمد عبد المنعم خفاجي،دار الجيل، بيروت، 1990، ص12.

18– الدولة العباسية: الشيخ محمد الخضري، المكتبة التوفيقية، ص166.

19– العرب تاريخ موجز: فيليب حتى، دار العلم للملايين، بيروت، ط5، 1980، ص240.

20– مجلة العربي الكويتية: ع 449، أفريل 1996، ص95.

21– المشاهير والسجون: (مجموعة مقالات قديمة نشرت في مجلة الهلال منذ ثمانين عاما تقريبا)، اعتنى بنشرها سليمان بن صالح الخرشي، ص20.

22– النقد والدراسة الأدبية: د.حلمي مرزوق، ص168.

23– المرجع السابق: ص176.

24– مجلة عالم الفكر (الكويت): مج 38، جانفي – مارس 2010، مقال د.الزواوي بغورة، ص78.

25– النقد والدراسة الأدبية: (مرجع سابق)، ص169.

26– مجلة عالم الفكر (مرجع سابق)، ص74.

27– انظر الآية: الأعراف 127.

28– انظر الآية: القصص 81.

29– محن الشعراء والأدباء وما أصابهم من السجن والتعذيب والتقتيل والبلاء: د. يحي الجبوري، دار العرب الإسلامي، ط1، 2003، ص48.

30– الأعمال الشعرية الكاملة: ص60.

31– استدعاء الشخصيات: ص204.